

ROWAQ

اواقف

MAYSALOON

ميسالون

Intellectual and Political Studies

دراسات فكرية سياسية

مجلة فصلية تصدر عن مؤسسة ميسالون للثقافة والترجمة والنشر

سوريا

بعد الثامن من ديسمبر 2024

في هذا العدد

■ نقد نظرية السلطة في
الإسلام السياسي (سورية مثلاً)
أحمد الرمح

■ النصر السوري والانطلاق نحو بناء الدولة
حسين الشرح
■ هوية السويداء: بين أزمة الذاكرة
وصعوبة الاختيار
جبر الشوفي

■ تحديات الزمن الانتقالي في سورية
أنور جمعاوي
■ سبل تحقيق العدالة الانتقالية
في سوريا
شريف شعبان مبروك

العدد السابع عشر - كانون الأول / ديسمبر 2025



دراسات ثقافية

■ نقد نظرية السلطة في الإسلام السياسي؛ سورية مثالاً

أحمد الرمح

■ الهويات المجروحة وامتحان المسؤولية والنقد

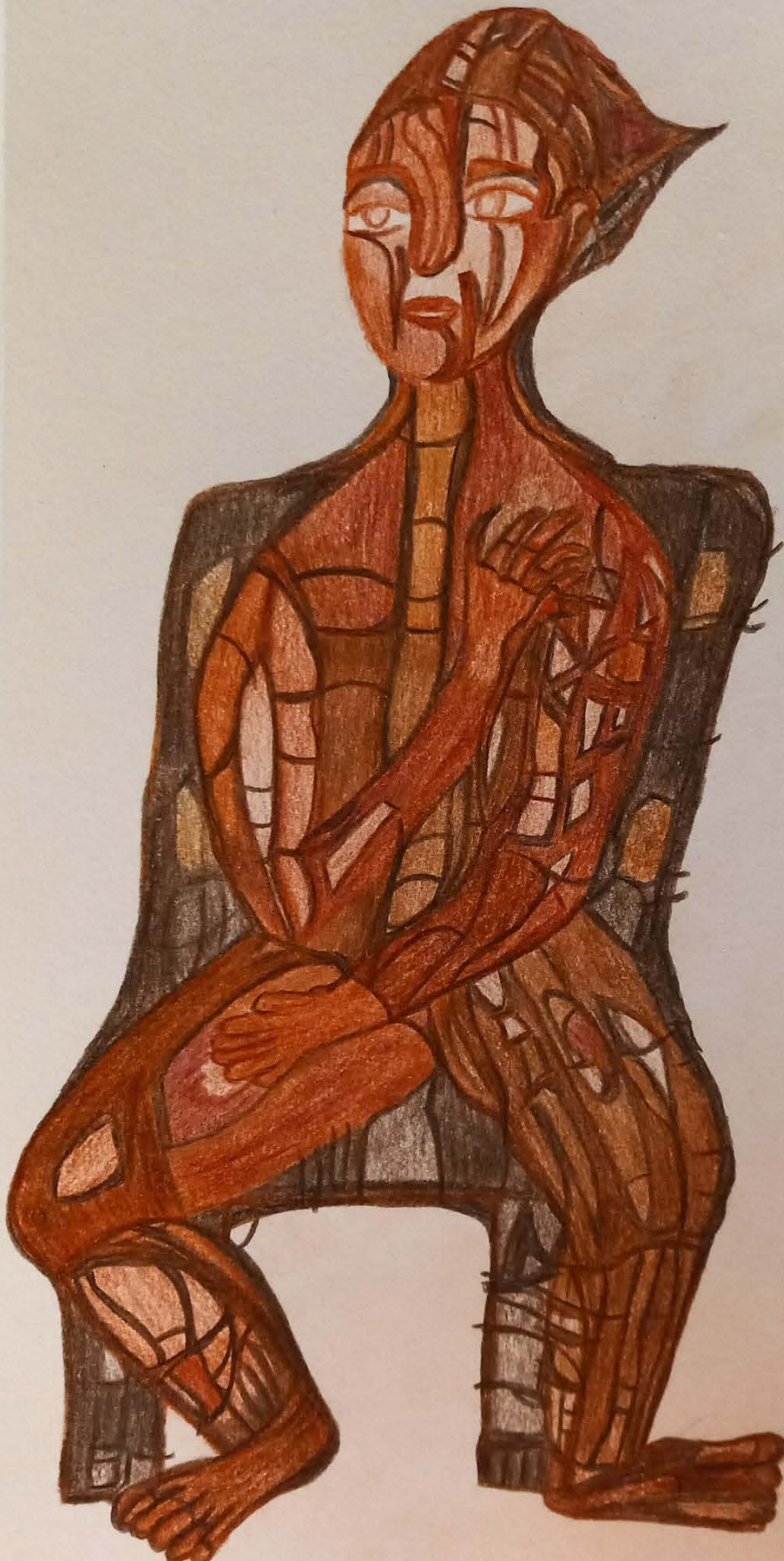
حسام الدين درويش

■ وِخِيال الهوية الانعزالية السورية بين الأنساق النقلية المُضْمَرَة

والأنساق الاغترابية الظاهرة (من نقد العقل النقلي المقلوب إلى نقض الاغتراب

الانعكاسي)

مازن أكثم سليمان



لوحة للفنانة السورية يارا وهبي

مخيل الهوية الانعزالية السورية بين الأنساق النقلية المضمرة والأنساق الاغترابية الظاهرة

(من نقد العقل النقلي المقلوب إلى نقض الاغتراب الانعكاسي)

مازن أكثم سليمان



مازن أكثم سليمان

شاعر وناقد سوريّ، حائز دكتوراه في الدراسات الأدبية من جامعة دمشق 2015. بدأ بنشر الشعر والدراسات النقدية منذ العام 1999. حاز جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي- مجال الدراسات النقدية (المركز الثاني)- عن مخطوط دراسته النقدية المعنونة ب: (انزياح أساليب الوجود في الكتابة الإبداعية بين مطابقات العولمة واختلافاتها)- دورة 2018/2019. مؤلفاته: 1- قبل غزاة النوم- شعر- دار الفاضل- دمشق/ سورية- 29 آذار/ مارس 2006. 2- حركية الشاعرات الكيانية- مهيمنات شعرية في زمن الثورة والحرب في سورية (2011-2018)- دراسات نقدية- دار موزايك للدراسات والنشر- إسطنبول/ تركيا- 29 آب/ أغسطس 2019. 3- بعدئذ قد تنجو المصافحات- شعر- دار موزايك للدراسات والنشر- إسطنبول/ تركيا- 21 آذار/ مارس 2021. 4- فأخوذًا بجمالٍ ثانٍ- شعر- دار خطوط وظلال للنشر والتوزيع- عمان/ الأردن- 24 كانون الثاني/ يناير 2023. 5- عمارة الرؤى الحضارية في قصيدة «موناذا دمشق» لمحمود السيد؛ دراسة نقدية في المستويات المضمونية والشكلية- ميسلون للثقافة والترجمة والنشر 2024.

هل يمكنُ الزعمُ، وإن بدا ذلك زعمًا مُسبّبًا لغاياتٍ إجرائيةً، بأن إحدى أهم (القيم المهيمنة) نسيًا على بنية المخيال السوري هي الموقف (الانعزالي)، بما ينطوي عليه هذا المخيال من ارتياب (هوياتي/ عن، وضد) الآخر المحكوم عليه، قَبليًا، بالإعدام المعنوي، وبالمخالفة المرفوضة؛ أي بالنفي الجوهراني، وبالاخلاف الحديّ التفاضليّ والإلغائيّ، لا بالاخلاف التعائشيّ والتراحميّ المقبول؟

هل يُمكنُ تفسيرُ جوانب من الواقع السوريّ طوال عُقودٍ طويلةٍ بالحديث عن موقف (أنويّ/ فرديّ وجمعيّ) انعزاليّ طاردٍ ورافضٍ للآخر، وبأنه موقفٌ ينطوي على نمطٍ من المخيال التراتبيّ المتكورّ ظاهريًا على مستوياتٍ عدّة ممّا أصطلح عليه في هذه المادة بـ (الاغتراب الانعكاسي)، والمُبطّن بنيويًا بأنساقٍ مضمرة تنتمي إلى آليات العقل النقليّ، وإلى ما اصطلحت عليه أيضًا بـ (العقل النقليّ المقلوب)؟

وفي حال كان هذا الاعتقاد صحيحًا إلى حدّ ما، كيف نتلمّس حضوره في مستويات الأساليب الوجودية السورية المختلفة؟

...ثمّ، كيف انعكس ذلك سلبًا على الثورة السورية، أو لا؟ وهل يُمكنُ مجاوزته، ثانيًا، بعد إسقاط السوريين المنظومة المجرمة بغية بناء دولة (المواطنة) الديمقراطية التعددية المتتمية إلى العصر والحريّة والمستقبل، كما يُفترض؟

مدخل تمهيدِيّ: الانعزاليّة بوصفها إخصاءً لتعيين (الأنا) في (ذات) خلاقَة

يدلّ الفعل (عزَلَ يَعزِلُ، عَزَلًا، فهو عازِلٌ، والمفعول مَعزُولٌ) في المُعجم العربيّ على فصلِ الشّيء عن اتّحادِهِ بغيرِهِ، وعن فرزه عن ذلك الشّيء وإبعاده عنه وتنجيته جانبًا.

أمّا الفعل (انعزَلَ عن ينعزِلُ، انعزَالَ، فهو مُنعزِلٌ، والمفعول مُنعزَلٌ عنه)، فهو مُطاوَعٌ (عزَلَ)، وانعزَلَ عن النَّاسِ: انزوى، وتَحَيَّ، وابتعد عنهم، وانعزَلَ في خَلْوَتِهِ: اعتزَلَ، وعاش في عزَلَةٍ.

والانعزال هو حيلةٌ نفسيّةٌ في نظريّة التّحليل النَّفسيّ كان سيغموند فرويد أوّل من اقترحها؛ وتُوصَفُ بأنّها عمليّةٌ عقليّةٌ تتضمّن إحداث فجوةٍ بين إدراكٍ بغيضٍ أو تهديديّ، والأفكارِ والمُشاعرِ الأخرى عبر تقليل الصّلاتِ التّرابطيّةِ مع الأفكارِ الأخرى.

وفي علم النَّفس المُعاصرِ وُصِفَ اضطرابُ الشّخصيّةِ الانعزاليّةِ بأنّها الشّخصيّةُ الخجولةُ والمُنسجبةُ والخائفةُ من رفضِ الآخرِ لها، حيثُ تميلُ إلى العزلةِ عن المُجتمعِ، والانطواءِ على الذاتِ بفعلِ شعورٍ مُحكَمٍ بضعفِ الثّقةِ بالنّفسِ.

وباختصارٍ، أُعرِفُ من جهتي الفعلَ الانعزاليّ إنسانيًا ووطنيًا، بأنّه:

آليّةٌ دفاعيّةٌ فوقيّةٌ (مُتعالية) في أساليبِ وجودِ المُنبسطِ الظّاهريّ، هُجوميّةٌ دونيّةٌ في العمقِ البنيويّ الدّاخليّ، فرديّةٌ أو جماعيّةٌ أو كليهما معًا، تقومُ على شعورٍ حادٍّ بالتمركزِ الطّهرانيّ والجوهرانيّ على الأنا الفرديّةِ والجمعيّةِ، بتأثيرِ ارتيابِ ينطوي على هواجسٍ نرجسيّةٍ (فوقيّةٌ ودونيّةٌ في الوقتِ نفسه)، حيثُ ينبسطُ فعلُ الانعزالِ انسحابيًا عبرَ بناءِ حواجزٍ (دفاعيّةٍ / هُجوميّةٍ) في مُواجهَةِ الأنا للآخرِ ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا، وهي الآليّاتُ التي تُعدِمُ الآخرَ معنويًا في حالاتِ السّلمِ، وماديًا في حالاتِ الحربِ، وتُخصّي الذاتِ نفسها بتثيبتها في / وطّيها على مركزيّةِ (أناها)، بما يمنعُ تعيّنَ (الأنا) وانساطِهِ في ذاتِ فاعليّةٍ ومُتفاعليّةٍ وخلاقَةٍ إنسانيًا ووطنيًا.

أولًا: الأنساقُ البنيويّةُ المضمرةُ للهويّةِ الانعزاليّةِ السّوريّةِ

أعتقدُ أنّ مخيالَ الهويّةِ الانعزاليّةِ السّوريّةِ ينبسطُ في عمقه البنيويّ في ثلاثة أنساقٍ مضمرة، هي:

1-1 العقلُ النّقليّ:

يُوصَفُ العقلُ النّقليّ بأنّه نقيضُ العقلِ؛ أي إنّه عقلٌ تمركزيّ أحاديّ ينفي بالمُطابقاتِ المُتعاليةِ الخبرةَ والاختبارَ النّقديّ، ويُقدّمُ ثوابتَ المَعْرِفَةِ والثّقافةِ المُسَبّقةِ، بوصفها ماهياتٍ مُنجزة، على أدواتِ (النّقْدِ)، مُعلّقا بابَ التّفكيرِ العقلائيّ أمامَ سجنِ (النّصِّ / مكتوبًا او شفويًا) وقيميّاته، ومُحوّلًا الزمانيّةِ الوقاعيّةِ، وتاريخيّتها المُستقبليّةِ، إلى بنيةٍ مُغلّقةٍ ومُتعاليةٍ ونهائيّةِ.

في مادّتي المُعنونة بـ (نحوَ موجة نهضويّة عربيّة ثالثة / مُقارَبة فكريّة جديدة لمُصطلحي «الأسلمة» و«ما بعدّها»)، المنشورة في موقِع (الجمهورية) بتاريخ 11 / 8 / 2023، فكّكتُ الموجتين النهضويّتين الآتيتين:

1- موجة عصر النهضة/ اليقظة العربيّة أو التّوير العربيّ/ الحداثة الأولى: (حقبة الأسلمة الانفعاليّة/ أو الأيديولوجيا بوصفها وجودًا بالقوّة):

ويؤرّخ بدوّها عند مُعظم الباحثين بالحملة الفرنسيّة على مصر والشّام (حملة نابليون بونابرت 1798-1801م).

2- موجة عصر الحداثة العربيّة/ ما بعد اليقظة العربيّة/ الحداثة الثّانية: (حقبة الأسلمة المُنظمة/ أو الأيديولوجيا بوصفها وجودًا بالفعل):

يميلُ مُعظم الباحثين إلى تأريخ/ أو إرجاع (إرهاصات) هذه الحقبة إلى بدايات القرن العشرين، حيث نُصّحت معالمُها، رُويدًا رُويدًا، مع بدء ما سُمّي (استقلال) الدُول العربيّة عن الاستعمار القديم، ووصولًا إلى أواسط القرن العشرين.

لعلّ حقبتَي (الأسلمة)، كما كتبتُ في مادّتي المُشار إليها، تُشكّلان انفتاح (نسقٍ وجوديّ عامّ/ كُليّ) اشتركتُ فيه (الخطابات) بجمليّة من المُحدّدات التّكوينيّة وعناصر الحُضور الواقعيّة، محكومةً بعددٍ من المُنطلقات والأفكار والمفاهيم والمُسبقات والرّؤى الأيديولوجيّة واليوتويبيّة التي نهضَ عليها (الإبستمي) لتسويغ شرعيّة (تملكه الاجتماعيّ للدّوات العربيّة) عبر توظيف رأس مال (رمزيّ/ ثقافيّ) كامن ومُليح في أسئلة الوعي واللاوعي الجمعيّ العربيّ المُتعطّش للنّهضة والتّقدّم والحضارة والعودة إلى التّاريخ والعصر.

وبهذا المعنى، حكّم النسقُ الوجوديّ العامّ/ الكُليّ للخطاب في هاتين الموجتين، صراعٌ (تمركزيّ تطابقيّ) لثنائياتٍ كانت سائدةً بين (التّناحر/ الإقصاء، والجدل)، هي:

1- الأنا/ الشّرق، والآخر/ الغرب.

2- الثّراث/ الماضي، والمُعاصرة/ الحاضر (التّقليد والحداثة).

3- الاتّباع والإبداع.

4- السّلطة والدّولة (المرجعيات المطلوبة أو المُفترضة أو الصّوريّة أو اللاّزمة/ المُلزّمة).

انطلاقًا من ذلك، سادت أجوبةٌ عن هذه الثّنائيات تُهيمنُ عليها قيمٌ خطابيّة (حديّة/ تفاصليّة) و(مركزيّة/ تطابقيّة) قائمةٌ في مُعظمها على مبادئ (المنطق الأرسطيّ):

1- مبدأ الجوهر الثّابت للهويّة.

2- مبدأ عدم التّناقض (الوحدة المُتماسكة والمُتعالية).

3- مبدأ الثّالث المرفوع (إمّا/ أو).

وهذا ما يُمكنُ وصفهُ بالخطاب الشّموليّ الأحاديّ، المُنبثق من فكر الثّنائيات الجوهرانيّة المُتحفّزة بمُسبقاتٍ مركزيّة تطابقيّة، لمواجهّة الأسئلة الكيانيّة المُقلّقة عربيًّا؛ أو بصياغةٍ أُخرى: انبسطَ في هاتين الموجتين صراعٌ أيديولوجيّ شموليّ (تناحريّ في الغالب، وجدليّ أحيانًا) قائمٌ لدى جميع التّيارات، نسبيًّا، على الإقصاء والتّمرکز الأحاديّ، وعلى جوهرانيّة امتلاك معرفة الحقيقة النهضويّة المُطابقة للمُسبقات.

إذ لطالما اشتغلت تلك (الخطابات / المؤدّجة) في (تملّكها الاجتماعي) على آليات أُصوليّة شموليّة تمنحها شرعيّتها انطلاقاً من مُصادرة الوجود قَبليّاً، وطيه على (وحدة / وحدات) أيديولوجيّة جوهرائيّة ومركزيّة تطابقيّة (متعالية ونهائيّة ومغلقة).

ويبدو أن هذه الأنساق مالت إلى نمط وجودي مُنحاز إلى مُطابقة أحد طرفي الثنائيات، إمّا بطبي الأوجبة والحلول على الماضي / العربي الإسلامي، أو بطيها على الحاضر / الغرب، وهو الأمر الذي يعني أن هذه الأنساق ظلت وفيّة للعقل النقليّ المُسبق، بما هو نفّي جوهرائي يُطن أساليب الوجود بمخيل هويّاتي انعزالي، قد يكون مُموّهاً نسبياً، لكنني أُميّز هنا بين العقل النقليّ التقليدي، وما سبّب دلالته المفهوميّة في الفقرات القادمة؛ أي: العقل النقليّ المقلوب.

2- العقل النقليّ المقلوب:

إثر نشر مادتي البحثيّة المشار إليها هنا (نحو موجة نهضويّة عربيّة ثالثة)، وردتني انتقادات مُفيدة عدّة، وتساؤلات جادّة، وحوارات غنيّة، دفعنني إلى إشهار مُصطلحي الجديد (الذي كنت أُرجمُ إشهاره من قبل): (العقل النقيديّ الزائف: العقل النقليّ المقلوب / المُزدوج) في منشور على حسابي في الفيس بوك، وذلك للارتباط العضويّ بين مضامين مادة الموجة النهضويّة الثالثة، والمفهوم الذي أمل أن ينطوي عليه مُصطلح (العقل النقليّ المقلوب / المُزدوج).

في مادة الموجة النهضويّة جعلت دالات مُصطلح (الأسلمة) الخطابية المفهوميّة غير مُقتصرة ومحصورة، فقط، في الإسلام السياسيّ، وحده، ولتطوي معها (أي تلك الدالات المفهوميّة) التيارات العربيّة الأيديولوجيّة في القرن العشرين التي دُعيت (تقدّميّة وعلمانيّة) من قوميّة ويساريّة وحتى ليبراليّة، التي رأيت أنّها (أصوليات شموليّة مقلوبة) في مُعظم خطاباتها وسلوكياتها؛ أي إنّها لا تخرج عن كونها (جوهرائيات مركزيّة)، طبعاً باعتماد (نسبيّة) مفهوم (القيمة المُهيمنة)، وليس عبر التعميم المذموم والمرفوض عندي، نظريّاً وإجرائيّاً.

ذلك أنّني اعتقدت أنّ سبب اندراجها تحت مروحة (الأسلمة) يكمن في تحليل خطاباتها القائمة علي (لوعوس) التحكّم الميتافيزيقيّ / أو: لوعوس إخضاع الوجود لمُسبقات الأيديولوجيات الشموليّة والأحاديّة / اليقينيّة، والقائمة على (منطقي الثنائيات التناحريّة)، وعلى منطق (التطابق الجوهرائيّ وامتلاك الحقيقة)، لا على الاختلاف والتعدديّة والانفتاح -نحو- التجربة والإبداع والمجهول.

ولا بدّ من الإشارة إلى كون مُنطقتي، النظريّة والعملية، تنهضُ هنا، على الدّفاع عن منطق الحرّيّة والاختلاف والثقافة بمعانيهم الواسعة، لا بدالاتهم المُصادرة أيديولوجيّاً، وعلى فهم الرّأسمال الحضاريّ الرّمزيّ بمعناه الواسع، لا بدالاته الأيديولوجيّة (الجوهرائيّة والمركزيّة التطابقيّة) المرحليّة الضيقة والمتعالية والنهائيّة.

لطالما تحدّث / وانتقد المُفكّرون العرب (العقل النقليّ) بوصفه أحد سمات العقل العربيّ المُتهافت، ولا سيما في بُعدهِ الأصيليّ والمُحافظ.

وتعني هؤلاء المُفكّرون بـ: (العقل النقيديّ)، الذي يفتحُ طريقَ مُجاوزة العقل النقليّ (المُتخلف والغارق في الفوات الحضاريّ)، نحو الالتحاق بالعصر والتقدّم وقيم الحرّيّة والتعدديّة وولادة الفرديّة.

لكن، للأسف: لم تكن معظم (المهيمنات النسبية) لطروحات (العقل العربي النقدي) سوى طروحات لـ (عقل نقدي زائف)، لا لـ (عقل نقدي أصيل)، ذلك أنه استُبدِلَ بـ (مطابقات النقل التراثي): (مطابقات النقل الحدائي الغربي = نقل مقلوب)، كأنها، مقولات وأفكار (مُنزلة) و (مُقدّسة) و (ثابتة).

فنسبة لا بأس بها من الطروحات الفكرية العربية (النقدية) تفتقد الأصالة، فما سمّي (الفكر النقدي) سعى في أغلبه إلى (مطابقة فكر الآخر)، واستيراده بحذافيره، وإسقاطه أو توماتيكياً، وكما هو، على إشكالياتنا العربية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفكرياً، ذلك عبر غياب واسع نسبياً لروح الابتكار والتخليق والاختلاف.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا التفكير لا يعني موقفاً مضاداً للتفاعل الثقافي، ولا ضد الاستفادة من منجزات البشر في كل مكان، لكنني أسجل تحفظي على غياب أصالة الفكر العربي النابع من ذات ندية وإثقة من نفسها - إلا فيما ندر من كتابات وروى ومؤلفات - لا من ذات هشة تشعر بالدونية وعقد النقص الحضاري النرجسية، وتستبدل بنقل قديم (تمركز دفاعي على الماضي) / الذات المتخيلة (هناك)، نقلاً حديثاً (تمركز دفاعي على الحاضر / الآخر؛ بما هو الذات المتخيلة هنا)، ظناً منها أنه (طريق / أو: وصفة) الخلاص الوحيدة والحاسمة..

يتسم (العقل العربي النقدي الزائف)، أو: (العقل النقلي المقلوب / المزدوج)، بمستويين نفسيين (مزدوجين)، يستحقان التفكير الخطابي والأنطولوجي / النفسي، هما:

1- الأشعور/ أو الوعي النقلي التقليدي (نسق مُضمر):

وهو ينطوي على رواسب بنوية متعلقة بالانتماء الجمعي إلى العقل النقلي العربي التراثي: (هوية لا شعورية موروثية).

وربما كان هذا الكلام هو تفسير جاد وطموح لدوافع ما دُعيَ بـ (نكوص) عدد كبير من العلمانيين والتقدميين إلى انتماءاتهم الدينية والطائفية والإثنية المغلقة.

وهو ما يلتقي، أيضاً، مع توظيفي لمفهوم (العصبية) عند ابن خلدون، الذي يُفسر بمعنى ما أن (عدم التدنن) عند نسبة كبيرة من (النخب) السياسية والثقافية العربية، لا يعني الخلاص من سلطة عصبية الهوية الموروثة، ومركزياتها.

2- الشعور/ أو الوعي النقلي الحديث (نسق ظاهر):

وهو ينطوي على غلاف من (الوعي الزائف) القائم على (عقل نقلي مقلوب)، يتدنر برداء الحدائث والعلمية والحريّة، وعلى مطابقات (دونية) لمُنجزات الآخرين (كنتذكر هنا كلام ابن خلدون، أيضاً، عن تقليد الأمم المهزومة للأمم المتقدمة)، وهذا العقل ينهض على (هوية شعورية مكتسبة)، لا تلبث أن تتحوّل إلى مُسبقات متحكّمة قبلياً.

يبدو لي، بعد هذا التمهيد، والاقتراح الاصطلاحي والمفهمي، أن إحدى سمات الهوية الانعزالية السوروية قارة في عمق بنية العقل النقلي، والعقل النقلي المقلوب، وهذا ما يمكن مناقشته لاحقاً عند ما يُسمّى (النخب) السياسية والثقافية في سورية.

1-3 تمويه النقد بحُجُب النقص:

لعلّ عطالة (جدلية النقد والنقص) هي من أهم أمراض بنى الهوية الانعزالية المضمرة، والتي تُؤبّد إحصاء الذات بثبوتها وطبها على مركزية (أناها)، بما يمنع تعينها وانسائها في (ذات) فاعلة ومُتفاعلة وخلافة إنسانياً ووطنياً.

في الكتاب المهمّ، وفق اعتقادي، للنقاد السوري الدكتور خلدون الشمعة: «كعب آخيل: النقد الثقافي والنقص المعرفي» الصادر عن دار (خطوط وظلال) الأردنية في العام 2021؛ رأى الشمعة أنّ النقد يتقاطب مع النقص؛ فالنقد تأويل، والنقص برهان؛ فإذا كان النقد الثقافي منهج نقديّ عابر للمناهج والأنساق المعرفية، فإنّ النقص المعرفي نتيجة سببية افتراضياً للنقد الثقافي.

بناءً على هذا الضبط الاصطلاحي والمفهومي، أدعي أن نسقاً مضمراً ثالثاً يتحالف مع نسقي (العقل النقلي)، و(العقل النقلي المقلوب)، في تأييد أساليب وجود الهوية الانعزالية السورية (وربما العربية أيضاً)؛ ذلك أن معظم (النقد) يميل إلى الإرجاء، في حين يتقدم (النقص) بوصفه عاملاً يسبق (النقد)، أو بالأحرى يُزيّفه ويُعطّله ويُغيّبه بتحويله إلى أساليب وجود مركزية وأحادية وإقصائية تنهض على النفي الجوهراني التّطابقية.

وهكذا، يلحق ما يتزبأ زيفاً برداء النقد، بقبليات العقلين النقلي، والنقلي المقلوب، كأنما توضعُ عربة (النقل / التقليد) أمام حصان (النقد / الابتكار)، كبحاً لانتحاح الذات الفاعلة والمُتفاعلة في فضاءات الوطنية والمواطنة، أو بالأحرى: إغراقاً لها في هويات انعزالية موروثية بالنسب، بدلاً من تخليق هويات تفاعلية حرّة وحيوية عبر الانتساب.

ثانياً: الأنساق الوظيفية الظاهرة للهوية الانعزالية السورية

أعتقد أنّ مخيل الهوية الانعزالية السورية ينبسط وظيفياً في ثلاثة أنساق ظاهرة، هي:

1-1 التراتبية:

التراتبية هي التسلسل الهرمي التفاضلي الهادف إلى تنظيم جماعة أو مجموعة عبر ارتباط هذه التراتبية بالطبيعة (التقديسية أو التبخيسية/ التي تصل إلى حدود الشيطنة أحياناً) بهذا القدر أو ذاك، بحيث يُعيّن تبعاً لذلك تموضع فرد ما أو جماعة ما أو مفهوم ما أو شيء ما.

وتنهض التراتبية في اعتقادي على (جملة / جمل) مقارنة ذات تكوين مسبق مُتكوّر على موقفٍ فوقيّ مُتعال، وهو في عمقه (الثقافوي) موقفٌ مؤسس على محورية التمرّكز الجوهراني بوصفه إعداماً معنوياً للآخر، وبما هو تبيت تطابقية للشائيات التقابلية المتناحرة، وتجذير عميق لمخيل الهوية الانعزالية، تأسيساً على مضمّرات العقل النقلي والعقل النقلي المقلوب، ومواقفهما الناهضة على تمويه النقد بحُجُب النقص.

وقد رأى علماء الاجتماع أن مفهوم التراتبية يعكس حالة (عدم المساواة) القائمة بين الأفراد والجماعات في المجتمعات البشرية، فهو يشير إلى ترتيب الناس وتقسيمهم وفق مبدأ المكانة والنسب والملكية والسلطة وغيرها من عناصر النفوذ والقوة والحضور في المجتمع.

2-2 الاغتراب، والاعتراب الانعكاسي:

الاعتراب مفهوم مركب ومتعدد الأبعاد إن في علم النفس أو في علم الاجتماع أو في الفلسفة. ويمكن اختزال مفهوماته وتكثيفها بالقول إنه حالة نفسية اجتماعية يشعر فيها الإنسان بالانفصال عن ذاته، وهو ما يؤدي تلقائياً إلى الانفصال عن المحيط الاجتماعي.

إنه شكل من أشكال الاستلاب الخارجي الذي يبنى فجوة بين المرء والعالم، وتتعدد في هذا الإطار تفسيرات أسبابه، وتصنيف أنماطه تبعاً للمدارس النفسية والاجتماعية، وتبعاً، كذلك، للاتجاهات الفلسفية.

لكن، إذا أردت أن أضع رسماً بيانياً افتراضياً لحركية أساليب وجود الاعتراب وفق وجهة نظري، أرى أن معظم التيارات قد جعلت العلة السببية الاعتراضية خارجية، والنتيجة داخلية؛ أي إنها رأت أن حركية الاعتراب هي انعكاس داخلي لما هو خارجي.

في هذا الإطار، أفرح من جهتي مصطلحاً ومفهوماً مكملاً وجديداً للاغتراب، هو: (الاعتراب الانعكاسي)؛ بوصفه قائماً على فرضية أن للاغتراب حركية ثانية متشابهة مع الحركية الأولى، أو متحالفة معها ضمناً، مصدرها الداخل المكبل بالمسببات والقبليات الموروثة والمكتسبة النفسية والاجتماعية والاعتقادية والانتروبولوجية والسياسية.

فالداخل المعترب ليس فقط مفعولاً به بوصفه صنعة الخارج؛ إنما هو في الآن نفسه، مفعول به وفاعل بوصفه صنعة عقل كليّ قار في أعماق الداخل، بقدر ما هو متأثر بهذا الخارج، وهو في مستوى منه وعي زائف مكتسب يكرّر بسط نفسه في الأفعال والمواقف والأحداث.

فهذا الاعتراب الانعكاسي هو فاعل رئيس في توليد حالات الاغتراب النفسي والاجتماعي والوجودي، ما دام قد انتشر الانفصال في كلا الاتجاهين، فالتأثر هو مؤثر في الوقت نفسه، والعكس صحيح، وهذا ما يحيلنا، نسبياً، إلى مفهومي (الانتشار) عند فوكو، و(الانثناء) عند دولوز؛ ذلك أن الاستلاب الخارجي قد تكون محرضاً مودعةً (نسبياً) في محاكاة استلاب داخلي مسبق، يُعَدُّ الذات نفسها بد (تثبيتها) في مركزية (أناها) المغلقة قبل أن يُعَدَّ آخرها، ويسقطها معاً في دوامة نفي جوهراني مستمرة.

ولهذا تنزاح عندي مقولة سارتر الشهيرة عن الاغتراب: «الآخرون هم الجحيم»، لتغدو في مستوى مكمل لها: (نحن جحيم الآخرين)، ونحن رعاة مخيال الهوية الانعزالية؛ المعطلة لانتفاخ أية ذات حرة أصيلة في وعاء هوية مواطنه مشتهاة، والغارقة حتى الثمالة في (لوغوس) التحكم القبلي (المموه للنقد بحجب النقض)، بين ترانبيات العقل النقلي والعقل النقلي المقلوب، وثنائياتهما الحديدية الإقصائية.

3-2 التّراحميّة المواربة:

إنّ السّيادة البنيويّة لسُلطتيّ العقل النّقليّ والعقل النّقليّ المقلوب، ذلك في إطار تمويه الفكر والموقف النّقديّ بحجاب النّقض المُسبق، وبها هو موقفٌ ميتافيزيقيّ ينهضُ على مركزية النّفى الجوهرانيّة الوفيّة لمنطق الثنائيات التّناحرية، كل هذا ينسبطُ في أساليب الوجود السوريّة الوظيفيّة، بدءًا بالتّراتبيّة، ومرورًا بالاغتراب والانعكاسيّ، وانتهاءً بنمط من التّراحميّة المواربة، أو بالأحرى التّراحميّة الكاذبة، التي لا يبقى منها عند كلّ مُنعطفٍ تاريخيّ سوى دالّ مُعلّق في هواء التّجريد الغنائيّ المُتخيّل، مُفصّلًا عن أصالة الهويّة التّفاعليّة، لمصلحة مخيل الهويّة الانعزاليّة.

لم تكن التّراحميّة في أحسن حالاتها غير قشرة أو قناع يُيسّرُ التّعاملَ بحُكم الضّرورة، في ظلّ سُلطات العنف المتوالدة تاريخيًا، وفي كلّ مرّة؛ فهي محيّلٌ حدّيّ تفاعليّ وإقصائيّ نقيضٌ للاختلاف التّواصلّي والتّبادليّ، وهي وفيّة أيّما وفاءٍ للأعراف الانعزاليّة المُتجسّدة بغياب المعرفة، وبتعطيل التّعرّف على الآخر، والاعتراف به وفق فضاء التّعُدُّ والتنوّع وغنى الاختلاف.

حينما كانت تُغلقُ أبواب بيوت السّوريين، ويتحدّثون بطلاقة، نعي من أحاديثهم مدى زيف التّراحميّة التي تنتمي إلى أسلحة الحرب المعنويّة الباردة، وتكشفُ عن طبيعتها عند كلّ انفجار أو احتقان تُغذيه قبضة أمنيّة مُتماسكة، أو يُغذّيه انحسارُ قبضة أمنيّة ما، فترتفع الحواجز -التي كانت سرّيّة أو مسكوتًا عنها- جهارًا، في ظل غياب أو تعييب المُواطنه والهويّة الوطنيّة، وتُهيمنُ أساليبُ وجودٍ أحاديّة وجوهريّة تعمل عبر آلياتٍ معياريةٍ تعميميّةٍ مُطلقةٍ وتلفيقيّةٍ اختزاليّةٍ؛ فهي آلياتٌ تنظرُ إلى الجماعات بوصفها وحداتٍ مُتعاليةٍ ومُغلقةٍ وثابتة، وهو الأمر الذي يلحقُ التّراحميّة تراتبيًا واغترابيًا بمنطق ثنائياتٍ شعبيّةٍ انتقائيّةٍ، لا ينمو فيها سوى النّفى الجوهرانيّ، وازدواجيّة المعايير، وقتل الآخر معنويًا، تمهيدًا لقتله مادّيًا.

ثالثًا: هجرة الأنساق الانعزاليّة المضمرة والظاهرة إلى مُنفذ الثّورة السوريّة

أزعمُ أنّ الأنساق الانعزاليّة المضمرة والظاهرة قد هاجرت إلى مُنفذ الثّورة السوريّة لأسباب كثيرة، منها ما هو مُحايث ثقافيًا، ومنها ما هو مُرتبط بتطوّرات الثّورة الموضوعيّة نفسها، وعسكرتها، وأسلمتها، وفائض العُنف الذي ساد فيها بعد مرحلتها السّلميّة الأولى، فضلًا، وبطبيعة الحال، عن ملء فراغ الصّراع الجيوسياسيّ عبر قوَى إقليميّة ودوليّة بأجنداتها المُختلفة والمُتراكبة.

ولعلّ هذه الهجرة كانت نتيجة مُتوقّعة، سببيًا، لانفجار جميع الاحتقانات السّاكنة أو المسكوت عنها في المجتمع السوريّ طوال عُقود سيطرة القبضة الأمنيّة الحديديّة، وهذا ما بدا انحرافًا في بعض المراحل، أو من بعض القوَى، عن أهداف ثورة استثنائيّة خرجت تُنادي بالكرامة والعدالة والحريّيات الديمقراطيّة والتّعدديّة.

وهنا، لا بدّ من الإشارة إلى توظيف السّلطة منذ اللّحظة الأولى الأدوات الانعزاليّة -وهي التي لطالما أتقنت استثمار التّناقضات في المجتمع السوريّ- بغية تفتيت هويّة الثّورة، وتمزيق مُنفذها.

فضلاً عن وجود البنية والأرضية المُستعدّة لتلقّي مثل هذه الخطابات، ولا سيما أنّ ملفّات كثيرة لم تُكن قد أُغلقت في ذاكرة السُّوريين ومعاناتهم الطويلة، مثل مجازر حماه وسجن تدمر وجسر الشغور وحي المشاركة في حلب، لتُكمل هذه المشهدية، أو تؤكدها مجازرُ السُّلطة البائدة، وعُنفها غير المسبوق.

وقد ساهم تشتت المُعارضة وضعفها وضيق أفقها، في تسهيل حصول مثل هذه الهجرة القاتلة لمشروع الوطنية والمُواطنية، وهو ما ظهر جلياً في إخفاقها في العمل التشاركيّ والمؤسّساتي من جانب أول، ولا سيما أنّها نقلت صراعات الأتلاجنسيا السُّورية من عقود السبعينيّات والثمانينيّات والتسعينيّات إلى الثورة، مُقصيةً معظم الكوادر الثورية الشابة، وموظفةً فضاء الحدث السوريّ في المُكاسرات البيئية، وتصفية الحسابات، وهو الأمر الذي دفعني للحديث في غير مادّة قديمة لي عن ضرورة التمييز الحاسم، اصطلاحياً ومفهومياً ووقائعيّاً، بين الثورة وحاضنتها، والمُعارضة وأوليّاتها. وتنسبط هجرة المخيال الهويّاتيّ الانعزاليّ (المُضمّر والظاهر) إلى الثورة، في ثلاثة مُستويات يُمكن تفكيكها ونقدّها، هي:

1-3 نقد التّجليات الطبقيّة:

تنهض أساليب وجود القيم المُهيمنة (طبقيّاً) على تراتبية مُثبّته للاغتراب والانعكاسي، وعلى نقض يكاد يمحو العقل النقديّ بفعل مُسبّقاتٍ نقلية راسخة تقوم على التّفي والتّفي المُضادّ جوهرانياً، في حلقة ثنائيات تناحريّة مُفرّغة.

ولعلّ خريطة التناقضات الطبقيّة مُتشعّبة ومُعقّدة بحيث تنسبط في كلّ منطقة أو مدينة أو قرية أو بادية على نحو مُختلفٍ من جهة العناصر والعلاقات، ومُتطابقٍ من جهة الوعي والبنية.

وهنا أدعي، أنّ عقليّة الآغا والمرابعيّ ذات الجذور الإقطاعيّة تكاد ألا تُغادر الواقع الطبقيّ السُّوري، وقد تجلّت بعمق في خريطة الثورة السُّورية وتحوّلاتها، وهو ما يظهر بجلاء في تموضعات المدن والأرياف والبوادي، وفي تموضعات كلّ منها داخل المدينة، أو داخل القرية، أو داخل البادية نفسها.

ثمّة قطيعة نفسية مُبطّنة بتراحيمة مُواربة لم تُعالج تاريخياً، وثمة تراتبية إقصاء تُنتج اغتراباتها وَاغتراباتها الانعكاسيّة التي تقوم على نفي عائليّ أحياناً، وعشائريّ قبليّ أحياناً أخرى، ومناطقّيّ غالباً. وفي مُستويات كثيرة يكون العامل المادّيّ حاسماً في رسم خريطة التّفوذ الاجتماعيّ طبقيّاً ضمن العائلات والعشائر والمناطق، وحتى ضمن الأحياء الداخليّة في المدن والأرياف.

ويبدو لي أنّ هذا التّموضع يؤثّر عميقاً على الرُّوى والمواقف على نحو عامّ، وعلى العمل المُشترك والتّعاون الأهليّ والمدنيّ من جانب أول، وعلى العمل المؤسّساتي من جانب ثانٍ، عبر ظهور نماذج استلاب وتنافس وكيدية وقطيعة ونفي، محمولة على مركزية (أنا) نرجسية يستحيل أن تحتفي في وضع كهذا، بانفتاح (ذاتها) التعدديّة الحرّة فردياً أو جمعياً، بما يُعمّق، بمعنى ما، تأييد مخيال الهويّة الانعزاليّة المُستقرّة، بوصفها هويّة ثنائيات إلغائية وطاردة للأخر المُختلف.

2-3 نقد التّجليات العنصريّة:

لعلّ ظُهور أساليب وجود القيم المُهيمنة (عُصريّاً) ينفي جذرياً آية روح تراحميّة أصيلة؛ إذ تكاد لا تنبسط إلا بوصفها مجرد قطرة رقيقة في مُستنقع مُترامي الأطراف يُغرق في أزمنة السّلم جدوة الاختلاف التّعائشي، أو بالأحرى جدوة العيش المُشترك وقبول الآخر المُختلف، مؤسساً في زمن الحرب عنفاً مادياً مُستمدّاً من نفي جوهرائي قارّ على مُستويي الأفراد والجماعات.

إنّ العنصريّات الدينيّة والطائفية والقوميّة الإثنيّة والمناطقية، لم تُمخّ يوماً في الوعي واللاوعي السّوري، لكنها كانت (تتقنّع) وتخضع لمآل خافت في أزمنة صعود مشروع الدولة الوطنيّة على قصرها؛ أي إنّها كانت تُحجّم وتُغيب ظاهريّاً، ولا تُغيب بنيويّاً أو نفسياً. وكان لعلو القبضة الأمنيّة دورٌ كبير إن بضبط إيقاع هذه العنصريّات من جهة أولى، أو بتوظيفها لمصلحة السّلطات القائمة التي تستثمر في التناقضات من جهة ثانية.

وهكذا، تبدو العنصريّات السّورية عوامل قتل معنوي، يبدأ بما يُحكّي ويُعتقد به سرّاً، من تعميم وتمييط وتأطير واختزال أحكام قيمة معيارية وأخلاقية، تُصدر حريّة التّفكح الكيانيّ للبشر المُختلفين، وبما يؤسّس للقتل المادي، وهو ما انفجر علانية دفعةً واحدة بعد انبثاق الثورة السّورية، وتجذّر، على نحو عميق، بفعل فائض العُنف الذي مارسته السّلطة الأسدية تجاه المُجتمع.

وهذا، بالتأكيد، عمّق الشروخ الوطنيّة، وأفقد النسيج الاجتماعيّ ثقته ببعضه بعضاً، وجذّر (لُوغوس) الخطاب الجوهرائي النافي للآخر، بما هو مُتأصل في سلسلة ثنائيات حديثة مُتناحرة عبر يقينيات امتلاك الحقيقة واستلابها، ومُتعيّن في مُنبسطات المخيال الهويّاتيّ الانعزاليّ، على حساب خطاب الوطن والمُواطنة والتعددية الجامع.

ويبدو أنّ ذلك، لطالما مثّل مُناخاً سياسياً واجتماعياً مؤسساً/ ومؤسساً على سُيولة النّقض المُسبق والقاتل للنقد لدى العقليّن (النّقليّ/ والنّقليّ المقلوب)، مُنبسطاً في أساليب وجود تراتبية إقصائية تُغذيّ التّعالي الاغترابيّ والاغترابيّ الانعكاسي، وتستبدل بتراحميّة الاختلاف الأصيلة تراحميّة قشريّة مُواربة؛ إنّ وُجدت نسبياً (أي تلك التّراحميّة)، ولا سيّما في حالات كحالات العُنف المعنويّ والماديّ التي سادت خلال الثورة والحرب السّورية.

3-3 نقد التّجليات النخبويّة:

ثمّة مُستويات عدّة لتلمّس انبساط هجرة مخيال الهويّة الانعزاليّة إلى مُنتح الثورة عبر أساليب وجود نسبة لا بأس بها ممّن يدعون بـ «النّخب» السياسيّة والثقافية.

بدت الأنانيّات النرجسيّة لعقود طويلة كأنّها سمة مُهيمنة على شخصيّة السياسيّ أو المُثقف السّوري، وما من شك أنّ منع النّظام الأسدّي البائد منذ زمن الأب، النّخب من الوجود والعمل وأخذ الدّور والمبادرة والتأثير في الفضاء العام المُختطف أمنيّاً، قد أدّى إلى حرمان نفسيّ، وإلى تضخم (الأنّا) على نحو تمحو شهوة الحُضور، أحياناً كثيرة، الأولويّات الوطنيّة، ذلك في ظلّ منافسة وإقصاء خطابيّ وعمليّ، ولدى كلّ منا أمثلة حيّة شخصيّة وعامة على ذلك.

لم تتوقف (الانتلجنسيا) السُّوريَّة عن التَّطاحن يومًا على حساب الرُّوِّيا الوطنيَّة وضرورتها، وتورَّط كثيرون في حفلات الإقصاء والنَّفْي الجوهرائي للآخر والقتل المعنوي والمادِّي، بدعوى امتلاك الحقيقة امتلاكًا حصرِيًّا.

فظهر لدينا بدلًا من (أنا النُّخبوي السياسي أو الثقافي) ما أصفُّه بأنَّه (مُثَقَّف / سياسي الأنا)، وهو من أسوأ وجوه التَّراتبيَّة والاعتراب والاعتراب الانعكاسي، وتزييف (التَّراحميَّة الوطنيَّة) بخطاب مُواطنه ممتلئ صوتيًّا، ومُفرَّغ فعليًّا من محتواه، هذا إن لم نُشر إلى مَنْ تورَّط منهم بخطاب عنصريِّ تحريضيِّ خلال الثورة.

لطالما بدا (مُثَقَّف الأنا) أوَّل قاتل للذَّات الوطنيَّة (الثوريَّة) الفاعلة، وأوَّل مُرسِّخ للعقلين النَّقليِّ والنَّقليِّ المقلوب؛ بدءًا من التحاقه بسياسات النَّفي الجوهرائيِّ أيديولوجيًّا بين (الأيديولوجيَّات القوميَّة واليساريَّة والإسلاميَّة)، حيث نقل الجزء الأكبر من «النَّخب» السُّوريَّة صراعات القرن العشرين إلى مُنتفح الثورة للأسف، على حساب طبيعة الثورة التي سبقتهم وسبقت خطاباتهم في حركيَّتها وجذريَّتها وأصالتها التَّاريخيَّة.

وهو ما انبسطت أساليبُ وجوده، مُكبَّلةٌ ومُرهقةٌ أيَّ انبثاقٍ مُمكن (ولو نظريًّا) لمشروع بناء دولة المُواطنَّة، التي كان لكلِّ تيارٍ - أو أفرادٍ من هذه النَّخب - تصوُّرٌ أيديولوجيِّ المُسبق والخاصِّ لشكلها ومضمونها، والذي يحكمُ موقفه من الثورة، بحيث بدأ أن كلَّ تيارٍ أو شخصٍ يُؤيد / أو يُريد (تفصيل الثورة) وليَّ عنقها، وفق هواه.

الأخطر على مُستوى نسبة كبيرة من «النَّخب» السِّياسيَّة والثقافيَّة، كان عبر سُقوطها في سياسات النُّكوص الهويَّاتيِّ بالارتداد إلى هويَّاتها الأوَّليَّة الموروثة بالنَّسب على حساب الهويَّات المُكتسبة، ولا سيما الهويَّة الوطنيَّة، وهو ما جذرَ وقَعهم، عن وعي أو عن غير وعي، بين برائن العقلين النَّقليِّ والنَّقليِّ المقلوب، بفعل سيادة خطابات النَّقض المُموَّهة للنَّقد، وسلوكيَّاتها وأفعالها.

ولعلَّ هذا ما عمَّق إثر ذلك، تراتبيَّات الاعتراب والاعتراب الانعكاسيِّ؛ حيث إنَّ مخيال الهويَّة الانعزاليَّة الذي تورَّط به أمثال هؤلاء خلال الثورة، ناجمٌ في جزء كبير منه، لا عن نكوص عنصريِّ (اعتقاديِّ)، بقدر ما هو ناجمٌ عن نكوصٍ عنصريِّ (عصبيِّ)؛ نسبةً، من جديد أيضًا، إلى مفهوم العصبيَّة عند ابن خلدون.

وهكذا، سقط جزءٌ وازنٌ من «النَّخب» السِّياسيَّة والثقافيَّة في فخاخ أساليب وجود (مُثَقَّف الأنا) الباحث عن ترميم نقصه الذَّاتيِّ، قبل الوفاء بمُقتضيات الثورة ومشروعها الوطنيِّ.

فكان هذا (الأنويِّ) المُشوَّه حاملًا لواء الإقصاء النَّافي للآخر، عبر تمركز جوهرائيِّ على مُسبَّقات أيديولوجيَّة وثنائيَّات تناحريَّة طبقيَّة وعنصريَّة، انبسطت خطابًا وسلوكًا وفعلًا، في تراتبيَّة شعبيَّة غرائزيَّة وطدت سُلطة المخيال الهويَّاتيِّ الانعزاليِّ، وعمَّته.

وقد تجلَّت بعض ملامحها في الإخفاق، غالبًا، في العمل المُؤسَّساتي المُشترك، وفي تحويل العمل الثوريِّ إلى غنيمَةٍ تحت مَبضع المُكتسبات، وازدواجيَّة المعايير وتصفيَّة الحسابات والثأريَّة والكيديات، أو النكيات والمراهقات السِّياسيَّة والثقافيَّة المُؤلَّمة جدًّا وباهظة الثمن.

ما يُشبهُ الخاتمة: ما بعد سُقوطِ الأبدِ (هجرةُ الهجرة)

يبدو في زعمي، أنّ ما هاجرَ إلى مُنتحِ الثورة، عادَ وهاجرَ إلى مُنتحِ ما بعد سُقوطِ النظامِ البائد، حيثُ تغيّرت مرّةً جديدةً، توضعُ العناصر، ولم تتغيّر البنيةُ المِخاليّةُ للهويّةِ الانعزاليّةِ، وأساليبُ وجودِ علاقاتها وتمترساتها ونتائجها.

قد يكونُ التساؤلُ المُلحّ الآتي مُسوِّغاً: هل فعلاً سقطَ الأبدُ؟

في اعتقادي، أنّ مُستوىً عيانيّاً سياسياً من الأبدِ قد سقطَ، في حين ما زالَ مُستوىً كُلّيّاً قائماً نفسياً وثقافياً ووقائعيّاً، بحيثُ نضعُ بين قوسين الزّعمَ بأنّ فعلَ الهدمِ قد أنجزَ على نحوٍ موثوقٍ وفعليّ، وأن فعلَ البناءِ قد بدأ على نحوٍ راسخٍ أو مُمنهجٍ.

لعلّ الخوض في مسألة هجرةِ مِخالِ الهويّةِ الانعزاليّةِ بعد سُقوطِ النظامِ البائدِ (هجرةُ الهجرة) يتطلّبُ مُقارَبَةً مرنةً وحُرّةً ونقديةً خارجَ الحتميّاتِ المُتعاليةِ أو اليقينيّاتِ المُتهافتةِ، وهنا تكونُ جُملةُ المُقارنةِ مُؤسّسةً انطلاقيّاً من اختبارِ المعاييرِ الآتيةِ، بما هي بوصلةٌ وطنيّةٌ، كما أفرَضُ، وينبغي استنطاقُ مدى وفائها المُتطلّباتِ الثورةِ، وأهدافها:

* هل حَجَمنا في خطاباتنا وسلوكنا وأفعالنا مُهيمناتِ العقلِ النقليّ والعقلِ النقليّ المقلوبِ، وتجليّاتهما (النقضيّة) المُموّهة والمُعظّلة للفعلِ النقديّ الأصيل؟

* هل تجاوزنا في خطاباتنا وسلوكنا وأفعالنا ما كان يُبَيّنُ السُّقوطَ في أساليبِ وجودِ الاغترابِ والاغترابِ الانعكاسيّ، وتقاليدِ التّراحميّةِ المُواربةِ؟

* هل خلّفنا وراءنا «نخباً وشعباً» خطاباتِ الكراهيّةِ والسُّلوكيّاتِ والأفعالِ التّحريضيّةِ والتّناحريةِ، ذاتِ المُنتلقاتِ الطّبقيّةِ والعنصريّةِ القائمةِ على النّفيِ الجوهريّ المُسبقِ، والتّعميماتِ الاختزاليّةِ المُتعاليةِ، وطهرانيّاتِ المظلوميّةِ الإقصائيّةِ بوصفها مداخلَ تسويغيّةً للاستقطابِ الحادِّ، وللقتلِ المعنويّ والماديّ، وللتّمترسِ في هويّاتِ ما قبلِ وطنيّة؟

* هل ما زلنا (جحيمَ الآخرين) بوعيٍ أو من دونِ وعيٍ؟ وهل يُبَيّنُ السُّورُيونَ كُلّ يومٍ أنّهم يعرفونَ بعضُهُم بعضاً، ويعرفونَ (ذبيحتُهُم المسكينة سورّيّة)؟

* وأخيراً، وليسَ آخرًا: هل نحنُ، فعلاً، نسيرُ بخطىٍ واثقةٍ على طريقِ تحقيقِ أهدافِ الثورةِ؟

إنّ السّيرَ على طريقِ تحقيقِ أهدافِ الثورةِ، يعني أنّ يكونَ مشروعُ بناءِ الدّولةِ مُتحرّكاً في مساراتِ خلاقَةٍ ومُنظّمةٍ؛ فانفتاحِ ما بعدِ الأبدِ، لا يكونُ انفتاحاً أصيلاً لتشييدِ عقلِ الدّولةِ الحديثةِ، من دونِ الوفاءِ، حُكماً، لمُحدّداتِ عقلِ الثورةِ، ومُتطلّباتها.

ولا سيما بتمكينِ أساليبِ وجودٍ مُجاوِزةٍ للنّفيِ الجوهريّ، ولثنائياتِهِ الانعزاليّةِ الغارقةِ في (استلابات) أُحاديّةِ الرّأيِ، وفي مركزيّاتِ الاعتقادِ وتملكِ الحقيقةِ النّهائيّةِ الإقصائيّةِ والإلغائيّةِ المُتعاليةِ، وهو ما يتيحُ بسطَ الفجوةِ الوجوديّةِ على مُهيمناتِ وطنيّةٍ جديدةٍ، تنهضُ بِمشروعِ هويّاتيِّ وطنيِّ ومُؤسّساتيِّ تعدديّ لإدارةِ التّنوعِ والفرديةِ والاختلافِ، ذلكَ أنّ أوّلَ سِماتِهِ هي ارتماءُ (الأنا) في ذاتِ نفاعليّةِ حُرّةٍ.

ووفقَ هذا التَّوجُّه، لن تُنجزَ هذه (النَّقْلة) ما لم نخرج من مجموعة إشكاليَّات بنيويَّة (شعبيَّة واستقطابيَّة)، سياسيَّة وأخلاقيَّة من جانب أول، وثقافيَّة/ معرفيَّة من جانب ثانٍ؛ إذ تتكشفُ أليَّاتها المُقيِّدة في الجراح التَّرجسيَّة الغرائزيَّة، وفي التَّفكير الرَّغبويِّ وبقينيَّات الإنكار، وفي عُقد المَظلوميَّات والتَّخوين الطَّارد للأخر، وفي سيادة الأحكام المُتعالِيَّة المُسبِّقة، والتَّعامل مع العناصر المُجتمعيَّة كأنَّها بنى مُغلقة وثابتة ونهائيَّة.

فهذا من دون شك، هو ما يُؤبِّد تمزيق النِّسيج الاجتماعيِّ والثقافيِّ الغنيِّ، بإعلاء خطاب منطوق الغلبة البدائيِّ، ومصالح الولاء المُفتقِدة للحكمة والرَّويَّة وفعل السِّياسة البناء، ويمحو فهم التَّعدديَّة في إطار مواطنة التَّنوع والاختلاف، ويُرجيُّ البحث عن مصالح المُشترَكَات الوطنيَّة، حفرًا وخلِّقًا يُشبهُ ابتكار رأس مالٍ رمزيٍّ جديدٍ وحيويِّ، لمخيالٍ وطنيِّ جامعٍ ومُؤسَّسٍ ومُنْتَظَرٍ.

لعلَّ تخليق هويَّةٍ وطنيَّة ما بعد انعزاليَّة، يحتاجُ إلى مُناخ سياسيِّ وقانونيِّ ودستوريِّ حُرٍّ وأصيلٍ ومُستدام، وإلى إعادة تشييد العلاقة بين الفرد والسُّلطة والدَّولة بوصفها علاقة مواطنة نديَّة تعاضديَّة، لا بوصفها علاقة رعايا تبعيَّة ترائبيَّة، وإلى أعمال العقل النَّقديِّ البناء والجذريِّ، بما هو مُفكِّك لبني الاستبداد وإعادة إنتاجه، وفاتِحٌ لمُمكِنات ولادة الذات الحُرَّة المُستقلَّة (التي لم تلد بعد أيضًا).

فالعقل النَّقديُّ يشيرُ دائمًا إلى ما ينبغي أن يكون، وما يجبُ أن نعملَ عليَّ تحقيقه خارجَ دُؤامة النَّقليَّة واغتراباتها؛ فإمَّا خيانة أباديَّة وقطيعة شاملة مع تقاليد التَّعفن والتَّمزق المُتكرِّرة في نسق: «ألا لا يجهلن أحدٌ علينا/ فنجهل فوق جهل الجاهلينا»، وإلا..... سيستمرُّ (لُوغوس) أساليب وجودٍ منخيالٍ الهويَّة الانعزاليَّة التَّمركزيِّ، في افتراسنا وتمزيقنا مرَّةً بعد مرَّة، ذلك في عودٍ أبديٍّ للجَهل والتَّخلف والخراب.



المشاركون في هذا العدد

13. عبد الإله فرح
14. عبد الرزاق دحنون
15. مازن أكثم سليمان
16. مهند البعلي

7. حسين الشرع
8. راتب شعبو
9. سالم الترابيين
10. سليم سنديان
11. شريف شعبان مبروك
12. ضرغام عارف السعيد

1. أحمد الرحم
2. أنور بدر
3. أنور جمعاوي
4. إياد شربجي
5. جبر الشوفي
6. حسام الدين درويش

